

فخ الدستور البروسي

ف. انجلز

اخيرا ظهر هذا العمل الذى طالما انتظرناه! { ٥١ } اخيرا - اذا صدقنا التاييمز، والجلوب وبعض الصحف الفرنسية وبعض الصحف الالمانية - ارتقت بروسيا الى مصاف البلدان الدستورية. على اى حال لقد اثبتت جريدة نورثرن ستار بما يكفى ان هذا الذى يدعى دستورا ليس سوى فخ قدم للشعب البروسى لخداعه بصرف نظره عن الحقوق التى وعد بها الملك الراحل فى الوقت الذى اراد فيه دعما شعبيا. هذه هى الحقيقة، ان فريديريك ويليام يحاول بهذا الذى يسمى دستورا ان يحصل على نقود بدون ان يقدم تنازلات للرأى العام، وهذا امر مؤكد لايعتريه الشك. وتوافق الصحف الديموقراطية فى كل البلدان - فى فرنسا، خاصة جريدتى ناسيونال وريفورم، بل مجلة جورنال دى ديبا الوزارية - على هذا الرأى. وتتمتع الصحافة الالمانية المقيدة نفسها بكلمات لانفيد نتيجة اخرى، وأن حزب الحركة فى بروسيا واع تماما بالنوايا الخبيثة لمليكمهم " الكريم، طاهر القلب ". وهاهو ذا السؤال المطروح : هل سينجح الملك فى خططه؟ هل سيكون المجلس المركزى للمقاطعات غيبا او جبانا الى الحد الذى يضمن فيه قرضا جديدا، دون ان يؤمن للشعب توسيع حرياته وهكذا يعطى الملك الوسائل لتأمين استمرار النظام لفترة غير محددة من الوقت؟

ونحن نحيب : لن يفعلوا، لن يستطيعوا.

لقد كانت الخطة المتبعة من الحكومة فى بروسيا حتى الان نتيجة للوضع النسبى للنبلاء والطبقات الوسطى فى المانيا. لقد فقدت النبالة الكثير الكثير من قوتها السابقة، ثروتها ونفوذها، حتى تتحكم فى الملك كما فعلت من قبل. اما الطبقات الوسطى فلم تكن قوية بما يكفى لازاحة وزن النبالة الميت، الذى اعاق تقدمها التجارى والصناعى. وهكذا تمكن الملك، ممثلا السلطة المركزية للدولة، مدعوما من طبقة موظفى الحكومة الوفيرة، مدنية كانت ام عسكرية، فضلا عن وجود الجيش طوع امره، تمكن من ان يخضع الطبقات الوسطى بواسطة النبالة، وان يخضع النبالة بواسطة الطبقات الوسطى، متملقا مصالح احدهما، ثم متملقا مصالح الاخرى، ثم موازنا بقدر مايستطيع، نفوذ كل منهما. هذه المرحلة من الملكية المطلقة قد خبرتها تقريبا اغلب البلدان المتحضرة فى اوروبا، وفى اكثرها تقدا افسحت مكانها لحكومة الطبقة الوسطى.

بروسيا، اكثر البلدان الالمانية تقدما، احتاجت حتى الان طبقة وسطى، ثرية، قوية،متحدة وذات طاقة قادرة على زعزعة الحكم المطلق، وعلى سحق بقايا النبالة الاقطاعية. لقد وضع العنصرين المتنافسين اى طبقة النبلاء والطبقات الوسطى، على اى حال، فى ظروف تشهد، بحكم التطور الطبيعى للصناعة والحضارة، نمو احدهما (الطبقات الوسطى) فى الثروة والنفوذ، بينما لايد للاخرى (النبالة) ان تتناقص، وتفنقر وتخسر اكثر فاكثر وتيرتها الصاعدة. بينما، تجد النبالة البروسية وكبار ملاك الارض الكبارا نفسهم كل عام فى وضع اسوأ، اولا، بسبب الحروب المدمرة مع فرنسا فى بداية هذا القرن، ثم بسبب قوانين القمح الانجليزية، { ٥٢ } التى منعتهم من دخول سوق هذا البلد، ثم بمنافسة استراليا، فى واحد من منتجاتها الرئيسية، الصوف، وبظروف اخرى كثيرة - تزايدت ثروة الطبقات الوسطى فى بروسيا وقوتها المنتجة، ونفوذها بصفة عامة. وخلصت الحروب مع فرنسا، منع السلع الانجليزية المصنعة من الاسواق القارية، صناعة يدوية فى بروسيا، وحين اعيد اقرار السلام، كان المصنعون محدثى النعمة اقوياء بما يكفى لاجبار الحكومة على منحهم ضرائب حمائية (١٨١٨). وسرعان ماتأسس بعد ذلك اتحاد جمركى، وهو اتحاد روج غالبا على سبيل الحصر مصالح الطبقة الوسطى. { ٥٣ } وفوق كل شئ الصراع التنافسى العنيف الناشئ بين الامم المصنعة والمناجرة المختلفة خلال الثلاثين عاما من السلام، اجبرت الطبقات الوسطى الروسية بطيئة النمو نسبيا، اما ان تسمح لنفسها بان تدمر كليا بسبب المنافسة الاجنبية، او ان تنطلق باعظم جدية مثل جيرانها.

لم يكن تقدم الطبقات الوسطى ملحوظا الا بشكل ضئيل حتى عام ١٨٤٠، حينما بدا لهم ان صعود ملك جديد { فريديريك ويليام الرابع } هو اللحظة المناسبة ليظهروا انه منذ ١٨١٥، تغيرت الاوضاع بالاحرى فى بروسيا. لست بحاجة الى ان اخص كيف تقدمت حركة الطبقات الوسطى منذ هذا الوقت وكيف لحقت بها اقسام المملكة الاخرى، حتى انضم اليها فى النهاية كل الطبقات الوسطى، والقسم الاعظم من الفلاحين، وليس قليلا من النبلاء. دستور تمثيلى، حرية الصحافة، محاكم علنية، عدم قابلية القضاة للعزل، محاكمة بواسطة محلفين - كانت هذه

هي مطالب الطبقات الوسطى. لقد رأى الفلاحون او ملاك الارض الصغار جيدا - على الاقل في اكثر اقسام المملكة استنارة - ان مثل هذه الاجراءات كانت تخدم مصالحهم ايضا وانها الوحيدة التي يمكن لهم ان يأملوا بواسطتها من ان يحرروا انفسهم من بقايا الاقطاعية، وان تكون لهم هيمنة على صنع التشريعات التي تعزز ملكيتهم. ظن القسم الاوفر من النبلاء ان النظام الدستوري ربما قد يعطيهم مكانا مرموقا في الجمعية التشريعية كيفما تطلبت مصالحهم، وانه، في كل الاحوال، فان هذا النظام لن يكون اكثر تدميرا لهم من النظام الذين يحيون في ظلهم. لقد كانت نبالة بروسيا بالمعنى الضيق للكلمة وبوسن، التي اضطهدت بقسوة لحاجتها للاسواق لمنتجاتها هي التي انضمت للحركة الليبرالية بسبب هذه الاعتبارات.

وباتت الطبقات الوسطى ذاتها في وضع اشد فاشد تعباً. لقد زادوا اهتماماتهم التصنيعية والتعدينية، وكذلك سفنهم، لمدى بعيد، لقد كانوا المومنين الرئيسيين لكل سوق الاتحاد الجمركي، زادت ثروتهم واعدادهم زيادة مهولة. ولكن خلال السنوات العشر او الخمس عشر الاخيرة هددتهم عمليات التقدم الضخم للصناعات الانجليزية والتعدين بمنافسة قاتلة. كل فيض في السوق الانجليزي القى بكميات كبيرة من السلع الانجليزية في الاتحاد الجمركي، حيث بيعت باسعار اكثر تدميرا للالمان منها للانجليز، لأن هؤلاء الاخيرين، قد حققوا خلال ازمة التجارة المزدهرة، ارباحا عظيمة في الاسواق الامريكية وغيرها، بينما لم يتمكن البروسيون من بيع منتجاتهم في اي مكان عدا داخل دائرة خطوطهم الجمركية الخاصة. لقد اقصيت سفنهم تقريبا عن موانئ الامم الاجنبية، بينما دخلت الموانئ البروسية سفنا تحمل كل الاعلام على قدم المساواة مع السفن البروسية. وهكذا، رغم ان هناك بالمقارنة رأسمال قليل في بروسيا، الا انه قد بدأت صعوبة استثماره بربحية. لقد ظهر وكأن التجارة تعمل تحت ضغط مستمر، حدث اهلاك المصانع، والالات، و المخزون التجاري ببطء ولكن باستمرار وهذا الاضطراب العام قد قطعه لوهلة مضاربات السكك الحديدية، التي كانت قد بدأت خلال الاعوام الثماني الماضية في بروسيا. وهذه المضاربات برفعها قيمة النقود الجاهزة، زادت من اهلاك المخزون التجاري، وكانت هي نفسها، ذات متوسط، غير مربحا للغاية، على اساس عدد السكان الضئيل نسبيا والتجارة في القسم الاعظم من البلاد. وقد قدمت، مع ذلك، فرصة افضل للربح اكثر من استثمارات صناعية اخرى، وهكذا فان كل من استطاع ان يضع بعض راس المال فقد اشتغل بها. وسرعان ما اتخذت هذه المضاربات طابعا محموما، وانتهت بأزمة تواصلت حوالي اثني عشر شهرا مضطهدة السوق المالي البروسي. وهكذا وجدت الطبقات الوسطى نفسها في وضع عسير للغاية في بداية العام الحالي: تعاني الاسواق المالية من حاجة غير عادية للعملة النقدية، والمقاطعات المصنعة تتطلب اكثر من اي وقت مضى تلك الرسوم الحمائية التي رفضت الحكومة منحها، تتطلب المدن الساحلية قوانين ملاحية بوصفها الوسيلة الوحيدة لراحتها، وفوق كل شيء، زيادة في اسواق القمح التي بلغت بالبلاد حافة المجاعة. كل اسباب السخط هذه فعلت فعلها في نفس الوقت، وبشكل اقوى على الشعب، عانى نساوجوا الكتان السيليزيين اعظم كساد، توقفت مصانع القطن، لا يعمل احد تقريبا في الراين مقاطعة التصنيع الكبرى، وهلك محصول البطاطس على الاغلب، وبيع الخبز باسعار المجاعة. لقد كانت اللحظة التي كان على الطبقات الوسطى ان تاخذ فيها الحكومة من ايدى الملك المعتوه، والنبالة الضعيفة، والبيروقراطية المزهوة بنفسها قد انتت بوضوح وان تحوزها لنفسها. انها حقيقة لافتة للنظر، غير انها تتكرر في كل حقبة ثورية، انه في ذات اللحظة التي توضع فيها طبقة قائمة للحركة في وضع مميز لانجاز تلك الحركة، فان الحكومة القديمة المهترئة تبلغ حد تسول مساعدة نفس الطبقة القائمة. وهكذا ففي ١٧٨٩، في فرنسا، حينما دفعت المجاعة، تدهور التجارة، والانقسامات داخل النبلاء، اذا جاز القول، الطبقات الوسطى الى الثورة - في تلك اللحظة وجدت الحكومة ان الوقت الى الخط الذكية العديدة لمواردها النقدية قد نفذت واختزلت الى بدأ الثورة بعقد اجتماع المجالس العامة. { ٥٤ } وهكذا في ١٨٤٧ في بروسيا. في نفس اللحظة حينما اكرهت الظروف الطبقات الوسطى البروسية بطينة النمو تقريبا على تغيير نظام الحكومة، في هذه اللحظة وبسبب حاجة الملك الى النقود اجبر على البدء في تغيير النظام الحكومي، وان يعقد بدوره المجالس العامة البروسية. ولاسبيل الى الشك في ان المجالس سوف تمحضه مقاومة اقل كثيرا مما سوف يفعلون الان، اذا كان سوق النقد يسيرا، والمصانع بكامل تشغيلها (سوف يكون بسبب التجارة المزدهرة والبيع السريع، وما يترتب على ذلك من اسعار عالية للسلع المصنعة في انجلترا) وذرة بسعر منخفض معقول. ولكن هاهي ذي: في ازمة اقتراب الثورة، فان لكل الطبقات التقدمية في المجتمع كامل الفرص في جانبها. لقد اظهرت لقراء جريدة ستار خلال مجرى الاعوام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ اكثر من مرة، ان ملك بروسيا في وضع مالي محرج. وقد لفت انتباههم في نفس الوقت الى الخطط العديدة الذكية التي سعى وزراؤه بواسطتها الى تخليصه، وتنبأت بأن المسألة بكاملها سوف تنتهي بانعقاد المجالس العامة. وهذا الحدث وقتها، لم يكن غير متوقعا، ولا كما يعرض الان، سببه الكرم الذي لاحد له لجلالته المسرفة، لاشئ سوى الضرورة المحض، الفقر والكساد هي التي استطاعت دفعه لهذه الخطوة، ومامن طفل في بروسيا لا يعرف ذلك. السؤال الوحيد اذن هو ذلك: -- هل الطبقات الوسطى البروسية، باستثمارها قرضا جديدا بضماتها، ستسمح للملك بان يواصل كما فعل حتى الان وان يتجاهل لسبع سنين اخرى التماساتهم وحاجاتهم؟ لقد اجبنا بالفعل على هذا السؤال. لا يستطيعوا ان يفعلوا هذا. لقد اثبتنا ذلك استنادا الى وضع الطبقات المعنية.

وسوف تثبت ذلك من خلال تكوين المجالس العامة ذاتها.

اعضاء فى طبقة النبلاء العليا والدنيا ٣١١

ممثلون للمدن والفلاحين ٣٠٦

وحيث ان الملك قد اعلن عزمه على زيادة اعضاء النبالة العليا (الاجمالي ٨٠) بخلق امراء جدد، قد نضيف الى النبالة، حوالى ٣٠ اكثر، ٣٤١ عضوا فى النبالة، او حزب الحكومة. اقتطع من هذا العدد الاقسام الليبرالية من من النبالة الدنيا، اى، كل نبالة بروسيا بالمعنى الدقيق للكلمة، ثلثيها من بوزن وبعض الاعضاء من النبالة الريمانية، والسيلازية، والبراندبورجية، والويستفالية، حوالى ٧٠ عضوا، يصوتون مع المدن والفلاحين، وموقف الاحزاب كما يلى : --

النبالة، او حزب الحكومة ٢٧١

المدن، والفلاحين، او المعارضة الليبرالية ٣٧٦

وهكذا، حتى السماح بان ثلاثين او اربعين مدينة او اعضاء الطبقة الفلاحية من المقاطعات البعيدة ان يصوتوا للحكومة، فسوف تكون هناك دائما اقلية ليبرالية تتراوح بين خمسة وعشرين الى خمسين صوت متبقيين، وبقدر قليل من الطاقة من جانب الليبراليين، سوف يكون من السهل تلبية كل طلب للنقود بطلب مقابل للمؤسسات الليبرالية. هناك بالاضافة لذلك، لاشك، انه فى ظل الظروف الراهنة، فان الناس سوف تدعم الطبقات الوسطى، وبضغطها من الخارج، وهو مايفتقر اليه بشدة، فهو يقوى شجاعة ويفعم طاقات هؤلاء الذين فى الداخل.

وهكذا، فان الدستور الروسى، التافه فى حد ذاته، هو لكل هذه الاسباب، بداية حقبة جديدة لهذا البلد، ولكل المانيا. انه علامة سقوط الحكم المطلق والنبالة، وصعود الطبقات الوسطى. انه علامة بداية الحركة التى سوف تقود بغاية السرعة الى وجود دستور تمثيلى للطبقات الوسطى، وصحافة حرة، وقضاة مستقلون والمحكمة بنظام المحلفين، والله وحده يعلم اين ينتهى ذلك. انه علامة تكرر ١٧٨٩ فى بروسيا. واذا كانت الحركة الثورية التى تبدأ الان سوف تهم الطبقات الوسطى مباشرة فقط، الا انها ليست لامبالية بمصالح الشعب. من اللحظة التى ستشكل فيها سلطة الطبقات الوسطى، من هذه اللحظة يبدأ انفصال وتميز الحركة الديمقراطية. فى النضال ضد الاستبداد والديموقراطية، الشعب، الحزب الديموقراطى، لايمكن له الا ان يلعب دورا ثانويا، فالمكانة الاولى تخص الطبقات الوسطى. من هذه اللحظة على اى حال، فان الطبقات الوسطى تؤسس حكومتها، تطابق نفسها مع استبداد وارسنقراطية جديدين ضد الشعب، من هذه اللحظة تتخذ الديمقراطية موقفا بوصفها حزب الحركة الحصرى الوحيد، من هذه اللحظة يتبسط الصراع، ويختزل الى حزبين، ويتغير وفق هذه الظروف الى "حزب بكل الوسائل" ان تاريخ الاحزاب الديمقراطية الفرنسية والانجليزية يثبت ذلك تماما.

هناك ظرف اخر علينا ان نلاحظه. ان استيلاء الطبقات الوسطى البروسية على السلطة العامة سوف يغير الوضع السياسى لكل البلدان الاوروبية. سوف ينحل تحالف الشمال. النمسا وروسيا النهابين الرئيسيين لبولندا سوف يعزلا تماما عن باقى اوربا، لان بروسيا سوف تجذب معها الدول الاصغر فى المانيا، التى لديها جميعا حكومات دستورية. وهكذا فان توازن القوى سوف يتغير تماما فى اوربا نتيجة لهذا الدستور التافه، هجرة ثلاثة ارباع المانيا من معسكر اوربا الشرقية الساكنة الى معسكر اورب الغربية التقدمية. فى فبراير ١٨٤٦، انفجرت الانتفاضة البولندية الاخيرة. { ٥٥ } فى فبراير ١٨٤٧، يعقد فريدريك وويليام المجالس العامة. وتأثر بولندا يلوح فى الافق!

هوامش

{ ٥١ } الاشارة الى المرسوم الصادر عن فريدريك وويليام الرابع فى ٣ فبراير، ١٨٤٧ لعقد الدايت المتحد - وهى جمعية متحدة لثمانى دايتات فى المقاطعات اسست فى ١٨٢٣. الدايت المتحد وكذلك دايتات المقاطعات تضم ممثلى الطبقات : البلاط وكبار الاعوان (الارستقراطية العليا) وصفوة الطبقات الثلاثة الاخرى (النبالة، ممثلى المدن والفلاحين). وكانت سلطاته محدودة فى التصريح بفرض ضرائب جديدة وعقد قروض، وابداء الرأى بغير تصويت اثناء مناقشة القوانين، وحق تقديم الالتماسات الى الملك. وكان الملك هو الذى يحدد مواعيد جلساته. افتتح الدايت المتحد فى ١١ ابريل، ١٨٤٧ ولكنه حل مبكرا فى يونيو لان الاغلبية رفضت التصويت على قرض جديد.

{ ٥٢ } قوانين القمح (ادخلت للمرة الاولى فى القرن الخامس عشر) وقد فرضت تعريفات عالية على الواردات الزراعية حتى تبقى اسعار المنتجات الزراعية مرتفعة فى السوق الداخلى. وفقا للقانون الصادر ١٨١٥ منعت واردات القمح طالما بقيت اسعار القمح فى انجلترا ادنى من ٨٠ شلن للربيع. وصدرت فيما بعد عدة قوانين (١٨٢٢، ١٨٢٨ وغيرها) وقد غيرت شروط استيراد القمح. انتهى الصراع بين البورجوازية الصناعية والارستقراطية العفارية حول قوانين القمح بالغاءها فى يونيو ١٨٤٦.

{ ٥٣ } الاتحاد الجمركي (الزولفرين) للولايات الالمانية (ضم ابتداء ١٨ دويلة) التي اسست جبهة جمركية عامة، تأسست في ١٨٤٣ وترأسها بروسيا. وحوالي سنوات ١٨٤٠ ضم الاتحاد اغلب الولايات الالمانية باستثناء النمسا، والمدن الهانسية (بريمن، لوبيسك، هامبورج) وبعض الولايات الصغيرة. اذ اخرجته الى الوجود ضرورة وجود سوق الماني موحد فقد روج الاتحاد الجمركي لاحقا لتوحيد المانيا السياسي.

{ ٥٤ } المجالس العامة – هيئة تمثل الطبقات في فرنسا القروسطية. وقد ضمت ممثلين عن الكهنوت، والنبلاء، وبورجوازية المدن. وقد التقوا في مايو ١٧٨٩ بعد عام من التوقف – في وقت نضج الثورة البورجوازية وفي ١٧ يونيو تحولت بقرار مندوبي الطبقة الثالثة الى الجمعية الوطنية التي اعلنت نفسها الجمعية التأسيسية في ٩ يوليو واصبحت الاداة العليا لفرنسا الثورية.

{ ٥٥ } الإشارة الى انتفاضة التحرر القومي في جمهورية كراكوف التي جرى السيطرة عليها بقرار من مؤتمر فيينا بالتضامن بين النمسا، وروسيا وبروسيا – الذين قسموا بولندا في نهاية القرن الثامن عشر. ان الاستيلاء على السلطة في كراكوف من قبل المنتفضين في ٢٢ فبراير، ١٨٤٦ وتأسيس حكومة قومية لجمهورية بولندا، التي اصدرت بيانا يلغي الخدمات الاقطاعية، كانت جزءا من انتفاضة عامة في الاراضي البولندية التي كان ملهموها الديموقراطيون الثوريون (ديمبوفسكى واخرين). سحقت انتفاضة كراكوف في مارس حيث افتقدت للدعم النشط في اقسام اخرى من بولندا من قبل قوات النمسا وروسيا القيصرية، و في نوفمبر ١٨٤٦ وقعت كل من النمسا، وبروسيا وروسيا معاهدة لضم " مدينة كراكوف الحرة " الى الامبراطورية النمساوية.

المصدر : الاسم الاصلى للمقال : الدستور البروسى، ماركس، انجلز، الاعمال الكاملة، المجلد السادس، ص ص ٥٢، ٥٣ دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥.